١٥ ـ المصريون المحدثون

شمائلهم وعاداتهم

في النصف الأول من القرن التاسع عشر

تأليف المستشرق الانجليزي ادورد وليم لين

للأستاذ عدلي طاهر نور

الفصل الخامس

الحياة المنزلية

الآن — وحسبنا ما نظرنا في حالة مصر الأخلاقية والاجتماعية — تستطيع أن نلقي نظرة على حياتهم المنزلية وعاداتهم المألوفة. ولنبدأ بالطبقتين العليا والوسطى

يطلق على رب العائلة أو من يبلغ سن الرجولة إذا لم يكن خادماً أو خاملاً لقب « شيخ » احتراماً وتشريفاً. والمعنى اللغوي لكلمة شيخ هو عجوز؛ ولكن كثيراً ما تستعمل مرادفة لفظة « سيد »، وإن أطلقت بصفة أخص على رجال الدين وأولياء الله. ويقال للشريف (من سلالة النبي صلى الله عليه وسلم) « السيد » أيا كان منصبه. وكثير من الأشراف يشتغلون خدماً وزبالين وسائلين ومع ذلك يلقبون بالسيد، ويميزون بالعمامة الخضراء[1]؛ إلا أن غالبهم، يفضلون على هذه الامتيازات لقب الشيخ والعمامة البيضاء. ويسمى من قام بفريضة الحج « الحاج »[2]. على أن هناك جملة حجاج، مثل الأشراف، يفضلون لقب الشيخ. ويطلق على العقائل بوجه عام لقب « الست »

وقبل أن أصف عادات رب العائلة يجب أن أشير إلى الطبقات المختلفة التي قد تتكون منها العائلة: (الحريم)، أي نساء المنزل، ولهن غرف خاصة بهن يطلق عليها، كما يطلق على النساء، الحريم ولا يسمح للرجال بدخولها ما عدا رب العائلة وبعض الأقارب الأدنين والأطفال. ويتألف الحريم من زوجة أو أكثر، ثم من الجواري. والبعض من الجواري

(١) كثيراً ما يتزوج رجال هذه الطبقة ونساؤها من غير الأشراف. ولما كان لقب الشريف يورث من أي الأبوين فقد كثر عدد من يتمتع بهذا التميز كثرة عظيمة

(٢) هذه الكلمة تنطق هكذا في القاهرة وأغلب أنحاء مصر. ولكن أكثر البلاد العربية تنطقها « حاج » (بتعطيش الجيم) ويستعمل الأتراك والفرس بدلا منها كلمة « حاجي »

وأسمى غرضاً، فهي ترمي إلى تكوين الجيل على أساس قوي من الوطنية المستنيرة، والإدراك السليم لحقائق المجتمع، والحرص على حقوقه الاجتماعية، والنهوض بأعبائه الثقال في مكافحة ما يندس في كيانه من الآفات، ومسايرة القافلة الإنسانية في تنقلها السريع

وإلا فما قيمة تلك النتائج التي أحرزها الشعب في جهاده الطويل، إذا لم يكن هذا الشعب قد تهيأ للانتفاع بها على الصورة التي تبدو فيها آثار التطور واضحة ملموسة؟

وما قيمة تلك المبادئ التي كفل بهما الدستور الحقوق والحريات، إذا كان الشعب عاجزاً عن تمثل هذه المبادئ وتطبيقها في حياته الفردية والاجتماعية؟

إننا بهذا الاتجاه السديد في فهم رسالة التعليم الإلزامي، نستطيع أن نتبين السر فيما نشكوه من العيوب في نواحي السياسة العامة. ونستطيع أن نعلل الفشل الذي يلازم أكثر مشروعات الإصلاح في هذه البلاد، لأن هذه المشروعات لم يسبقها إعداد التربة الصالحة لنموها وازدهارها، وإيجاد الأيدي الشعبية القوية التي تقوم على تحقيق هذه المشروعات

تلك هي رسالة التعليم الإلزامي في مصر، مستمدة من روح الدستور الذي وضع للمواطن المصري أرقى مبادئ السياسة والتشريع، ومستلهمة من حاضر هذا الوطن المفتقر إلى كل إصلاح، المشرئب إلى مستقبل وثيق الصلة بماضيه المجيد

(القاهرة) محمد فاضل عمر

والحبشيات أو نساء الجلا[1] يقتنين على العموم للتسرى ، وأما السود منهن فيتخذن للخدمة ، وأخيراً الخادمات الحرائر . أما التابعون الذكور فهم عبيد سود أو بيض ، ثم خدم أحرار وهم الأكثرية . وقلما يبيح المصريون لأنفسهم ما أباح الدين من تعدد الزوجات . ولا يزال عدد من يعاشر أكثر من امرأة بالزواج أو التسرى قليلاً . حتى أن أغلب الذين يكتفون بزوجة واحدة لا يتسرون ليتمتعوا بالهدوء المنزلى ، إذا لم يكن لسبب آخر . ولكن بعضهم يفضل اقتناء جارية حبشية للتسرى على القيام بالنفقات الزوجية المرهقة ، ويجعل لخدمتها جارية سوداء أو خادمة مصرية .

ويندر أن يحتفظ الرجل بزوجتين أو أكثر فى المنزل نفسه ، وإلا خصص لكل منهن غرفة متميزة . ويقوم على خدمة رب الدار وضيوفه خادم أو أكثر ، ومنهم خادم يسمى (سقا) ، ولكنه على الأخص يقوم على خدمة السيدات وهن خارج المنزل فقط[2] ، ثم البواب وهو يجلس داعماً على باب المنزل ، والسائس للاعتناء بالاسطبل . وقلما يمتلك المصريون مماليك إذ أن أغلبهم فى حوزة أغنياء الترك . ويندر أيضاً أن يكون لأحد غير عظماء الأتراك أغاوات . ويفتخر أغنياء التجار المصريين عند ما يسير فى ركابهم ، أو يحمل شبكهم ، عبد أسود .

يبكر المصرى فى نومه وفى استيقاظه ، وهو ينهض للصلاة قبل الفجر ، وبينما يقوم بفروض الوضوء والصلاة تجهز له امرأته أو جاريته القهوة ، وتحشو له شبكه تبغاً وتقدمهما له حين ينتهى من فروضه الدينية

وكثير من المصريين لا يتناولون شيئاً قبل الظهر غير القهوة وتدخين الشبك ؛ وبعضهم يتناول أكلة خفيفة فى ساعة مبكرة . ويتكون الفطور من الخبز والبيض والزبد والجبن والقشدة أو لبن الزبادى ... الخ أو فطيرة تؤكل وحدها أو بالعسل يصب فوقها أو بالسكر . ومن الأطعمة المألوفة فى الفطور الفول المدمس ، وهو يدمس بإنضاجه على مهل ليلة بطولها فى إناء من الفخار يدفن إلى رقبته فى نار الفرن أو الحمام بعد أن تسد فوهته سداً محكماً . ويؤكل الفول بزيت بذر الكتان أو بالزبد ، وقد يعصر عليه قليل من الليمون . ويباع هذا الفول فى أسواق القاهرة وغيرها من المدن . ويتكون طعام الفقراء من الخبز « والدقة » وهى خليط من الملح والفلفل مع الزعتر أو النعناع أو الكمون وأحد المواد الآتية أو أكثرها أو جميعها : وهى الكزبرة والخارصينى والسمسم والحمص . ويصنع الخبز مستديراً مسطحاً ، بطول الشبر تقريباً وفى عرض الأصبع أو أقل

ويتمتع بالتدخين والقهوة كل من يستطيع لنفسه هذا الترف ، فى الصباح المبكر وأحياناً أثناء النهار . وهناك كثيرون يندر أبداً أن تراهم بدون شبك ، إما بين أيديهم وإما مع الخادم . ويجعل المدخن ، لاستعماله اليومى ، دخانه فى كيس من الصوف أو الحرير أو المخمل ، يضمه فى جيب قفطانه ، وكثيراً ما يكون معه كيس آخر به الزناد والصوفان

ويبلغ طول قصبة التدخين (وأسماؤها عديدة منها الشبك[1] والمود الخ) أربعة أقدام أو خمسة ، والبعض أقصر من ذلك والبعض الآخر أطول بكثير . وما يستعمل عادة فى مصر يصنع من خشب « الجرمشق » وأكثر طول القصبة ، من الفم إلى ثلاثة أرباعها ، يغطى بالحرير الذى تحد طرفيه سلوك ذهبية محبوكة بالحرير الملون أو تحدها ماسورتان من الفضة المذهبة ؛ ويتدلى من الغطاء الحريرى فى الحد أسفل شرابة حريرية ، وكان هذا الغطاء مخصصاً بادىء الأمر ليبلل بالماء فيبرد ويالتبخر الشبك وبالتالى الدخان . ولكن الشبك لا يغطى إلا إذا كان عتيقاً أو قبيح الشكل . وكثيراً ما يستعمل أيضاً الشبك المصنوع من خشب الكرز خصوصاً فى الشتاء وهو لا يغطى أبداً . ولا يبرد الدخان فى شبك الكرز صيفاً مثل ما يبرد فى الشبك السابق

(١) الجلا Galla شعب حامى يسكن شرق أفريقيا ، وهو مشتت فى أقاليم الحبشة الوسطى وكينيا . ويبدو أن لفظة « جلا » لقب حبشى
ويقول أرنو دابادى Arnaud d'Abbadie أن مسلمى الأحباش يروون أن الرسول صلى الله عليه وسلم حينما أرسل إلى « الجلا » من يدعوهم إلى الاسلام قال رئيسهم : كلا ! (أو جلا ، أى لا) فلما سمع الرسول بذلك قال : إذاً لتكن تسميتهم دالة على امتناعهم عن الايمان
و « الجلا » جنس جميل الشكل إلى درجة عجيبة ، كيت البشرة ، ناعم الشعر موجه ، وسيماء على العموم أوربية . (أنظر دائرة المعارف البريطانية ، مادة Galla) . المترجم

(٢) إلا إذا كان هناك أغا ، والسقا على العموم هو رئيس الخدم

(١) من التركية (شبوق)

ذكره. أما «الحجر» فهو من الآجر[1]؛ وأما الفم أو «التركية» فيتكون من قطعتين أو أكثر من الكهرمان الفاتح اللون، يصل ما بينهما زخارف من الذهب المرصع باللينا والحجر اليمان والبشب والعقيق أو غير ذلك من الأحجار الكريمة أو المعادن النفيسة. والفم أغن ما فى الشبك، وقد يرصع بالماس. ويبلغ ثمن الشبك الأكثر شيوعاً بين الطبقة الوسطى من جنيه إلى ثلاثة جنيهات أسترليني. ويوضع فوق الشبك أنبوبة من الخشب كثيراً ما تغير كلما تلوثت بزيت الدخان. والشبك ذاته يتطلب النظافة كثيراً، وينظف بألياف الكتان مشدودة فى سلك طويل. ويعيش كثير من فقراء القاهرة على تنظيف الشبك

ويدخن أفراد الطبقة الراقية فى مصر تبغاً له عطر لطيف لذيذ، يجلب أكثره من جوار اللاذقية فى سوريا. وأحسن الأصناف «الدخان الجبلى» يزرع على تلال هذه المدينة. وهناك صنف قوى ينسب إلى مدينة صور، وهو الدخان الصورى، يخلط أحياناً بالصنف السابق ويستعمله أفراد الطبقة الوسطى. وعندما يدخن المصريون أو الشرقيون يسحبون نفساً طويلاً، فيصل كثير من الدخان إلى الرئة، ويعبرون عن التدخين عادة بشرب الدخان أو شرب التبغ. والقليل يبصق عند ما يدخن. ولم أر أحداً يفعل ذلك إلا نادراً جداً.

ويستعمل بعض المصريين الشبك الفارسى الذى يمر فيه الدخان خلال الماء، وهذا النوع يستعمله عادة أفراد الطبقة الراقية ويسمى (نارجيك) لأن الوعاء الذى يحوى الماء جوزة هندية (واسمها بالعربية نارجيلة) وهناك نوع آخر ذو وعاء زجاجى يسمى (شيشة)[2] وكلا النوعين له أنبوبة طويلة لينة. انظر (شكل ٣٣). وهناك نوع خاص من التبغ الفارسى يسمى (تنباك) يستعمل فى شبك الماء. وهو يغسل أولاً عدة مرات ويجعل بعد ذلك فى حجر الشبك وهو رطب، ثم يوضع عليه جمرتان أو ثلاث من الفحم. والتنباك عطر لطيف مقبول. ولكن شدة استنشاق الدخان فى هذا النوع من التدخين يضر الرئة الضعيفة[1]. ومدخن الشبك الفارسى يشد الدخان إلى رئتيه مثل ما يستنشق الهواء الخالص. وترجع كثرة أمراض الكبد فى بلاد العرب إلى استعمال النرجيلة، كما أنه فى مصر يتألم الكثيرون جد الألم بسبب هذا. وهناك نوع يسمى (جوزة) يشبه النرجيلة إلا أن أنبوبته عصا قصيرة بدلاً من أنبوبة النرجيلة القابلة للانثناء، ويستعمله رجال الطبقة السفلى لتدخين التنباك والحشيش.

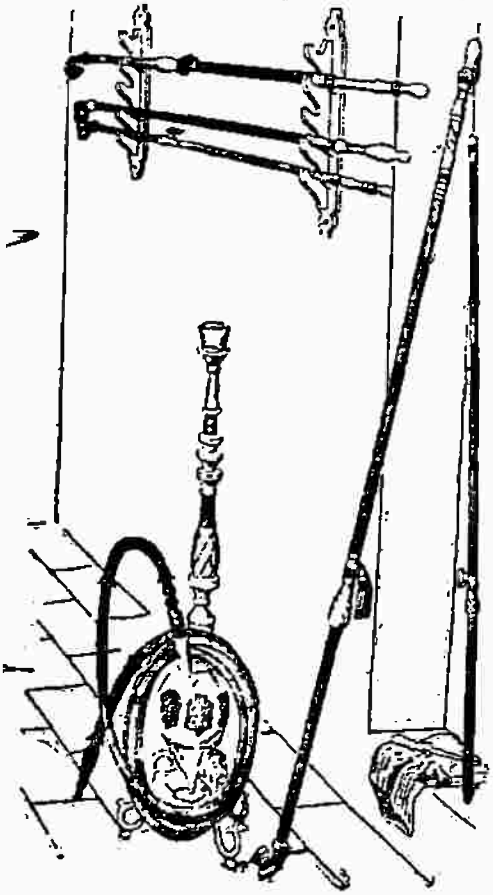

(شكل ٣٣) تصبات التدخين

(يتبع)

عبد الله فكرى نور

(١) ويوضع تحت الجمر صينية نحاسية صغيرة لصيانة السجاد أو الحصير من النار، ويستعمل أيضا صينية خشبية ليوضع فيها الرماد

(٢) كلمة فارسية بمعنى (زجاجة)

(١) وهي مع ذلك توصف بأنها تصاب بالسعال. ويستعمل أحد أصدقائي (أشهر شعراء القاهرة) — وهو مصاب بالربو — النرجيلة من الصباح إلى الليل بلا انقطاع تقريبا

مجموعات الرسالة

تباع مجموعات الرسالة مجلدة بالأثمان الآتية: السنة الأولى فى مجلد واحد ٥٠ قرشا، و٧٠ قرشا عن كل سنة من السنوات: الثانية والثالثة والرابعة والخامسة والسادسة والسابعة والثامنة فى مجلدين. وثمن هذا البريد والبريد تفرنجا خمسة قروش فى الداخل وعشرة قروش فى السودان وعشرون قرشا فى الخارج عن كل مجلد.